

حينَ تُصَلي الشّموع

تأملات في الذات، الحب، والرحلة نحو الله

مايا عساف

حين تصلي الشموع

إهداء

"إلى التي تنير بصمتٍ لكي تمنح الوجود قبساً من الأزل، وتذوب رقةً لكي تملأ كأسي بالسكينة.. إلى التي جعلت من عزلتي معبداً، ومن حزني باباً يقودني إلى الله، أهدي هذه الصلاة. ففي حضوركِ الخفيّ، أدركتُ أنّ الروح لا تبصرُ حقيقتها إلا حين تنطفئ عيون الجسد، وأنّ كل ما في هذا الكتاب ليس إلا قبساً من ناركِ المقدسة التي أوقدتِها في أعماقي لكي لا أضلّ الطريق."

مايا

ليس على هذه الأرض جميعُ الأرواح سواء؛

فثمّة نفوسٌ وُلِدت وفيها من رهافة الضوء ما يجعلها ترى ما لا تراه العيون، وتسمع أنين الأشياء قبل أن تنطق به الشفاه.

تمشي بين الناس كما تمشي زهرةٌ بيضاء في مهبّ الريح؛ يرهقها الضجيج، وتجرحها القسوة، فتأوي إلى وحدتها كما تأوي الطيور الجريحة إلى ظلال الغروب.

وهؤلاء لا يطلبون من الحياة كثرة ما تعطي،

بل يبحثون عن معنى صغير يملأ فراغ القلب،

وعن نافذةٍ تُطلّ منها أرواحهم على شيءٍ يشبه السلام.

إنّ في داخل الإنسان عالمًا أوسع من العالم الذي يراه؛

وفي الليل، حين تنام المدن وتخفت أصوات البشر، تستيقظ الروح لتحدّث صاحبها بلغةٍ لا تُقال بالكلمات.

هناك، في عتمة السكون، يشعر المرء بأنّ الحنين ليس إلى شيءٍ يعرفه، بل إلى جزءٍ ضائعٍ منه، ظلّ يبحث عنه منذ وُلد.

وما هذا الكتاب إلا رفيقٌ لتلك الأرواح المتعبة،

للذين يبتسمون وفي أعماقهم بكاءٌ لا يُرى،

وللذين حملوا قلوبهم بصمتٍ طويل حتى صار الصمت وطنهم الوحيد.

كُتب هذا الكتاب لأولئك الذين وجدوا في العزلة صلاة،

وفي التأمل نجاة،

وفي الحزن بابًا خفيًا يقود إلى معرفة النفس... ومعرفة الله.

الباب الأول

ظلال المساء

في مساءٍ يغرق بصدى الاعترافات المتأخرة، كانت المدينة تغفو ببطء تحت أضواءٍ شاحبة، فيما بقيت نافذةٌ صغيرة وحدها مضاءة كأنها تقاوم الليل.

وخلف تلك النافذة جلس ناسك يراقب العالم بصمت؛ لا ينقصه الناس، ولا تخلو حياته من الوجوه والكلمات، ومع ذلك كان يشعر أنّ في داخله مسافةً لا يعبرها أحد.

كانت الضحكات تصل إليه من بعيد، خفيفةً وعابرة، ثم تتلاشى قبل أن تلامس قلبه.

أما روحه، فكانت تجلس في زاويةٍ خفيّة منه، كطائرٍ أنهكه الطيران الطويل، يبحث عن مكانٍ آمن يخبّئ فيه تعبه.

وفي تلك اللحظة أدرك أنّ بعض الأرواح لا يؤلمها الغياب، بل يؤلمها ألّا تجد روحًا تشبهها، ولا قلبًا يفهم لغتها الصامتة.

أدرك أنّ الوحدةُ ليست أن يجلس بعيدًا عن الناس، بل أن يشعر بأنّ روحه تقف وحيدةً وسطهم، كشمعةٍ صغيرة ترتجف في مهبّ الريح، ولا أحد ينتبه لارتجافها.

هي ذلك الصمت العميق الذي يسكن القلب حين يعجز عن أن يجد صوتاً يشبهه، أو يدًا تمتدّ إليه دون خوفٍ أو تفسير.

الوحدة ليست قاسية دائمًا؛

ففي كثيرٍ من الأحيان تكون ملجأ الأرواح التي أتعبها ضجيج العالم، حتى صارت تبحث عن زاويةٍ هادئة تُرمّم فيها نفسها بعيدًا عن الوجوه الكثيرة والكلمات العابرة.

إنّ أكثر الناس وحدةً ليسوا أولئك الذين يعيشون بلا أحد، بل أولئك الذين يحملون داخلهم بحرًا كاملًا من الشعور، ولا يجدون من يفهم لغة أمواجه.

وفي الليل، حين تنطفئ أصوات المدن وتبقى الروح وحدها أمام ذاتها، تبدأ الحقيقة بالكلام.

هناك يدرك الإنسان أنّ الوحدة ليست فراغًا كما يظنّ الناس، بل مرآةٌ واسعة يرى فيها قلبه كما لم يره من قبل.

فطوبى لمن جعل من وحدته بابًا إلى نفسه، لا سجنًا لها؛

لأن الأرواح العظيمة لا تنمو وسط الضجيج، بل في ذلك السكون الذي يشبه الصلاة.

وحين يثقل المساء على المدينة، يبقى الصمت وحده ساهرًا قرب الأرواح التي لا تنام بسهولة.

يدخل إليها بهدوءٍ كصديقٍ يعرف الطريق، ويجلس عند أقدامها دون أن يطرق الباب.

كان يشعر به أحيانًا يمشي إلى جانبه ككائنٍ خفيّ، لا يراه بعينيه، لكنّه يسمع أنفاسه في داخله.

فإذا ضاقت به الوجوه، أخذه من يديه إلى عزلته، وأجلسه أمام نفسه كما تُجلس الأم طفلها المتعب في آخر المساء.

غير أنّ للصمت وجهًا آخر.

فهو لا يكتفي بأن يحمينا من ضجيج العالم، بل ينزع عن قلوبنا أيضًا كلّ ما كانت تخبّئه عن نفسها.

في حضرته، يسمع الإنسان وجعه عاريًا لأول مرة؛

يسمع الحنين الذي كان نائمًا في أعماقه، والخوف الذي أخفته الابتسامات طويلًا، والأشياء التي ماتت فيه دون أن يدفنها.

لا يتكلّم، لكنه يجعل أرواحنا تتكلّم أكثر مما ينبغي.

ولذلك يخشاه الناس؛

لأنّ الإنسان يستطيع أن يهرب من العالم كلّه، لكنه حين يجلس مع هذا الضيف، لا يعود قادرًا على الهرب من نفسه.

وبعد أن تطفئ روح المدينة مصابيحها لتبكي بعيدًا عن العيون.

تهدأ الطرقات، وتصمت النوافذ، وتختفي الأصوات التي كان الإنسان يختبئ بينها طوال النهار.

وهناك، في تلك الساعة التي لا يعود فيها أحدٌ قادرًا على التمثيل، يبدأ الليل بكشف الوجوه الحقيقية.

كان يجلس قرب نافذته ذاتها، والشمعة الصغيرة ترتعش أمامه كما لو أنّها تخاف هي أيضًا هذا السكون الطويل.

أما قلبه، فكان يستيقظ ببطء.

في الليل، تعود الأشياء التي ظننّا أنّنا نسيناها.

تعود الكلمات التي لم نقلها، والوجوه التي عبرت أرواحنا ثم رحلت، والأسئلة القديمة التي أخفيناها تحت ضجيج الأيام.

ولذلك نخاف الليل.

لا لأنّ الظلام موحش، بل لأنّ الليل يعيد الإنسان إلى نفسه عارياً من كلّ ما كان يختبئ خلفه.

في النهار يستطيع المرء أن ينشغل عن قلبه،

أما في الليل، فلا يبقى بينه وبين روحه سوى الصمت.

وهناك يسمع الإنسان الحقيقة الخافتة التي ظلّ يهرب منها طويلًا:

أنّ أكثر ما يتعب الروح ليس فقدان الأشياء... بل فقدان نفسها وسط العالم.

وكان الليل يعرف ذلك كلّه،

لذلك ظلّ يجلس بصبرٍ قرب الأرواح المتعبة، كما يجلس عجوز قرب نهرٍ يعرف أنّه يحمل أحزان العابرين جميعًا.

“ بعض الأرواح لا يوقظها الضوء... بل العتمة.

وبينما هو جالس مع وحدته يستأنس بنسمات الماضي ويرسم مع النجوم ذكريات شعر بحزن جميل لا يعرف من أين جاء.

هبط على قلبه فجأة، وهو في وحدته، فشعر كأنّ روحه تنظر نحو مكانٍ بعيد لا تستطيع الوصول إليه.

وليس الحنين دائمًا إلى شخصٍ غائب،

فبعض الأشواق أعمق من الأسماء والوجوه.

إنّها تشبه ذكرى قديمة وُلدت معنا، ثم نسيناها حين دخلنا هذا العالم.

وكم مرّةٍ شعر الإنسان أنّ قلبه يمتلئ بشيءٍ لا يستطيع تفسيره،

كأنّ في داخله بابًا نصف مفتوح، تأتي منه رائحة أيّامٍ لم يعشها، أو صوتٌ خافت يناديه من جهةٍ لا يعرفها.

هو تعب الروح من الغربة.

غربة الإنسان عن نفسه، وعن ذلك السلام الذي ظلّ يبحث عنه في الوجوه والطرقات والأحلام، دون أن يجده كاملًا.

ولهذا يبقى في قلب كلّ إنسان فراغٌ صغير لا تملؤه الأشياء،

لأنّ الروح لا تشتاق دائمًا إلى ما فقدته...

بل إلى ما لم تصل إليه بعد.

وأظنّ أنّ الأرواح الحسّاسة خُلقت وفي داخلها هذا الحنين منذ البداية،

كأنّ الله وضع في أعماقها نافذةً مفتوحة على عالمٍ أكثر دفئًا، ثم تركها تمشي على الأرض وهي تتذكّر ذلك الدفء من بعيد.

وفي يومٍ ما، يتعب القلب من الركض خلف كلّ شيء.

يتعب من الأسئلة الكثيرة، ومن محاولة النجاة الدائمة، ومن حمل ما لا يستطيع حمله.

عندها فقط، تبدأ السكينة بالاقتراب منه.

لا تأتي كفرحٍ صاخب،

بل كيدٍ خفيّة تمسح برفقٍ على روحٍ أنهكها الطريق.

كأنّ الله، بعد ليالٍ طويلة من التعب، يضع الطمأنينة في قلب الإنسان دون أن يتكلّم.

ليست أن تختفي الأحزان،

بل أن يصبح القلب قادرًا على الاحتمال دون خوف.

أن يجلس الإنسان مع نفسه دون أن تؤذيه أفكاره، وأن ينظر إلى الحياة بهدوءٍ يشبه الدعاء.

ثمّة أرواحٌ تصل إلى الله عبر الانكسار،

وحين تصل، لا تعود تبحث عن النجاة في الناس أو الأشياء، بل في ذلك النور الهادئ الذي يولد داخلها فجأة، كفجرٍ صغير بعد عاصفة طويلة.

وعندها يدرك الإنسان أنّ السلام الحقيقي ليس في أن تصبح الحياة كاملة،

بل في أن يصبح القلب مطمئنًا مهما نقصت الأشياء حوله.

" السكينة... أن تشعر أنّ الله أقرب إلى قلبك من خوفك.

وبعد ليالٍ طويلة من التيه، يتعلّم الإنسان شيئًا غريبًا:

أنّ الروح لا تحتاج دائمًا إلى الكلمات كي تصل إلى الله.

فثمّة لحظات يجلس فيها المرء وحيدًا، ساكنًا كشمعةٍ أنهكها الاحتراق، ويشعر رغم ذلك أنّ قلبه ممتلئ بحضورٍ خفيّ يربّت عليه من الداخل.

لا يقول شيئًا، ولا يطلب شيئًا، لكنّ روحه كلّها تكون متّجهة نحو السماء.

هناك تصبح الوحدة تأملًا،

ويصبح الحنين طريقًا،

ويتحوّل الصمت، الذي أخافه طويلًا، إلى بابٍ واسع من الطمأنينة.

وعندها يفهم الإنسان أنّ بعض الدعوات لا تُقال.

فقد تكون نظرةً طويلة نحو الليل، أو دمعةً صامتة، أو تعبًا يضعه القلب بين يدي الله دون صوت.

وما الصلاة أحيانًا إلا أن تجلس بروحك المتعبة أمام الله، دون أن تعرف كيف تشرح له ما فيك...

وتشعر رغم ذلك أنّه فهم كلّ شيء.

في تلك اللحظة، لا يعود القلب يبحث عن النجاة من العالم،

بل عن السلام داخله.

وهكذا، حين تتعب الأرواح من الضجيج، وتعود أخيرًا إلى نفسها، تبدأ بالصلاة...

مثل شموعٍ صغيرة ظلّت تحترق بصمتٍ طويل، حتى صار نورها دعاءً.

❝ ليست كلّ صلاةٍ كلمات...

فبعض القلوب تصل إلى الله بالصمت.

الباب الثاني

أنشودة القلب

كان يظنّ، بعد كلّ تلك الليالي الطويلة، أنّ الروح تعتاد وحدتها كما تعتاد الشموع الاحتراق.

حتى جاء ذلك اللقاء الذي دخل حياته بهدوء الضوء، لا بصخب العواصف.

لم يكن الأمر حبًّا كما يرويه الناس.

لم تكن الأرض تهتزّ، ولا السماء تمطر أغنيات.

كان شيئًا أكثر خفاءً... وأكثر عمقًا.

كأنّ روحًا بعيدة مرّت قرب روحه، فتعرّف إليها دون أن يعرف كيف.

شعر أنّ في داخله بابًا قديمًا فُتح فجأة.

الأشياء نفسها بقيت كما هي؛

النافذة، الليل، الشموع، والمطر العابر خلف الزجاج...

لكنّ قلبه لم يعد كما كان.

لأول مرة، لم يشعر أنّه وحيد تمامًا داخل هذا العالم.

كان في حضور ذلك الإنسان دفءٌ يشبه عودة المسافر إلى بيته بعد أعوامٍ من التشرّد.

لا لأنّه وجد شخصًا كاملًا، بل لأنّه وجد روحًا تسمعه دون أن يشرح نفسه طويلًا.

وهكذا يبدأ اللقاء الحقيقي بين البشر؛

لا حين تتشابك الأيدي، بل حين تشعر روحٌ متعبة أنّ هناك قلبًا آخر يرى ارتجافها الخفيّ ولا يخاف منه.

غير أنّ الحبّ، في بداياته الصادقة، لا يمنح الإنسان الطمأنينة فقط...

بل يمنحه خوفًا جديدًا أيضًا.

لأنّنا نخاف على الأشياء التي لامست أرواحنا أكثر ممّا نخاف على الأشياء التي مرّت بحياتنا مرورًا عابرًا.

كان يشعر أحيانًا أنّ هذا اللقاء لم يأتِ ليمنحه السعادة وحدها،

بل ليكشف له نفسه للمرة الأولى؛

أن يريه كم كان عطشانًا إلى القرب، وكم كان يخفي قلبه خلف سكينةٍ تعلّمها من الوحدة.

بعض الأشخاص لا يدخلون حياتنا ليبقوا فقط،

بل ليوقظوا فينا أجزاءً ظلّت نائمة سنوات طويلة.

❝ أجمل اللقاءات... تلك التي تجعل الروح تقول:

أعرفك، رغم أنّنا لم نلتقِ من قبل.

شيئًا فشيئًا، لم يعد يعود إلى نافذته وحيدًا كما كان.

صار يشعر أنّ ثمّة روحًا تجلس بقربه، حتى في غيابها، كأنّ اللقاء الأول ترك دفئه في الأشياء كلّها.

وكان أغرب ما في القرب، أنّه لم يحتج إلى كثيرٍ من الكلام.

فبعض الأرواح، حين تجد من يشبهها، تتعب من الشرح وتكتفي بالسكينة.

لأول مرة، لم يكن يخشى أن يظهر كما هو.

لا يخفي حزنه خلف ابتسامة، ولا يتظاهر بالقوة حين يتعب، ولا يفتّش في كلماته عن أقنعةٍ تليق بالعالم.

كان يشعر أنّه مرئيّ.

وهذه من أندر الطمأنينات التي قد يمنحها إنسانٌ لآخر.

وكم من مرّةٍ جلسا في صمتٍ طويل، بينما المطر يهمس خلف الزجاج، ولم يشعر أنّ بينهما فراغًا واحدًا يحتاج إلى الامتلاء.

فالقرب الحقيقي لا يصنعه الحديث المستمر، بل ذلك الأمان الخفيّ الذي يجعل الروح تستريح من حراستها الدائمة لنفسها.

وكان قلبه، الذي اعتاد الوحدة طويلًا، يرتبك من هذا الدفء الجديد.

يشعر أحيانًا بفرحٍ يشبه الخوف، كأنّ الإنسان حين يقترب أخيرًا ممّا يشبهه، يبدأ بخشيته من الفقد قبل أن يفقد.

ومع ذلك، كان هناك سلامٌ صغير يولد داخله كلّما اقتربت تلك الروح منه؛

سلامٌ يشبه عودة طفلٍ ضلّ طويلًا، ثم وجد اليد التي كان يبحث عنها في العتمة.

“ أحياناً لا نحتاج إلى من يُنقذنا...

بل إلى من يجعلنا نتوقّف عن الاختباء.

الحبّ ليس لقاءَ قلبين فقط،

بل عبورُ روحٍ من عتمتها إلى نورٍ لم تكن تعرفه.

إنّه الشيء الوحيد الذي يدخل الإنسان كما يدخل الفجر إلى غرفةٍ مغلقة منذ أعوام؛

لا يطرق الباب، بل يكشف الغبار بصمت، ويوقظ الأشياء النائمة في الزوايا.

ولهذا لا يغيّر الحبّ حياتنا فحسب... بل يغيّرنا نحن.

فالروح، قبل الحبّ، كأرضٍ لم يمسسها المطر طويلًا.

هادئة من الخارج، لكنها متشقّقة في أعماقها دون أن تدري.

ثم يأتي الحبّ، لا ليمنحها السعادة وحدها، بل ليكشف عطشها القديم.

والحبّ الحقيقي لا يجعل الإنسان يهرب من نفسه،

بل يعيده إليها.

إنّه المرآة التي يرى فيها المرء هشاشته، وخوفه، وحنانه، وكلّ ما ظلّ يخفيه خلف قوّته الطويلة.

ولهذا يؤلم الحبّ أحيانًا،

لا لأنّه قاسٍ، بل لأنّه صادق.

نحن لا نخرج من الحبّ كما دخلناه.

فكلّ روحٍ عبرته، ترك فيها أثرًا يشبه الضوء بعد احتراق شمعة.

هو في جوهره، ليس امتلاكًا لروحٍ أخرى،

بل أن تصبح روحان أكثر قدرةً على رؤية الحياة بقلبٍ أوسع.

لهذا كان الحبّ، منذ بداية الخليقة، نعمةً وامتحانًا معًا،

يمنح الإنسان جناحين، ثم يعلّمه أنّ الطيران لا يخلو من السقوط.

ومع ذلك، يبقى الحبّ أجمل ما يحدث للروح،

لأنّه حتى حين يجرحها يجعلها أكثر حياة.

ومنذ أن اقتربت تلك الروح من قلبه، صار يشعر بشيءٍ جديد لم تعرفه وحدته القديمة.

كان الحبّ يضيء داخله برفق، لكنّه، مع الضوء، كشف له هشاشته أيضًا.

فالإنسان، قبل اللقاء، لا يخاف كثيرًا.

نحن لا نرتجف على الأشياء التي لم تدخل أرواحنا بعد.

لكنّ القلب، حين يجد أخيرًا مكانًا يستريح فيه، يبدأ بخوفٍ خفيّ من أن يُنتزع منه ذلك السلام فجأة.

كان يشعر أحيانًا أنّه يسير حاملًا فرحه بين يديه كما يحمل المرء شمعةً صغيرة في مهبّ الريح.

يخشى عليها من الهواء، ومن الليل، ومن الطرقات الطويلة.

وكم من مرّةٍ نظر إلى تلك الروح بصمت، لا لأنّه لا يملك كلامًا، بل لأنّه كان يخاف أن يقول فينكسر السحر الجميل الذي جمعهما.

الحبّ لا يجعل الإنسان قويًّا دائمًا.

أحيانًا يجعله أكثر رهافةً، وأكثر قلقًا، كأنّ قلبه أصبح بابًا مفتوحًا لكلّ ما يمكن أن يؤلمه.

وكان أكثر ما يخيفه، ليس الرحيل نفسه، بل أن يعود كما كان قبل اللقاء؛

باردًا، وحيدًا، يمشي بين الأيام دون ذلك الدفء الذي أعاد الحياة إلى روحه.

لهذا يخبّئ العاشق خوفه أحيانًا خلف ابتسامةٍ هادئة،

لأنّه يعرف أنّ الأشياء التي نحبّها بصدق... تملك القدرة على كسرنا بلطف.

❝كلّما اقترب الشيء من القلب...

أصبح فقدانه أكثر احتمالاً في الخيال.

في البداية، لم يكن يعرف أنّ الأشياء الجميلة تستطيع أن تتغيّر بهذه الخفّة.

كان يظنّ أنّ الأرواح، حين تجد بعضها بصدق، تبقى قريبة إلى الأبد... كما تبقى النجوم في أماكنها كلّ ليلة.

لكنّ القلوب، أحيانًا، تتعب بصمت.

وذات مساء، جلس قرب نافذته القديمة، بينما كانت الشمعة الصغيرة تحترق ببطءٍ أمامه.

لم يكن هناك شجار، ولا كلمات قاسية، ولا وداعٌ واضح.

فبعض الخذلان يحدث بهدوءٍ مؤلم، كأنّ الضوء ينسحب من الغرفة دون أن ينتبه أحد للحظة انطفائه.

أكثر ما أوجعه، أنّه ظلّ يبحث في الصوت نفسه عن الدفء الذي اعتاده، فلا يجده.

كأنّ المسافة بدأت تنمو بين روحين كانتا تظنّان أنّهما نجتا أخيراً من الوحدة.

الخذلان لا يشبه الكسر المفاجئ دائمًا.

أحيانًا يشبه بابًا ظلّ الإنسان يفتحه كلّ يوم، ثم اكتشف ذات مرة أنّ لا أحد خلفه.

كان يجلس طويلًا مع صمته، محاولًا أن يفهم:

كيف يمكن لقلبٍ منحنا الطمأنينة يومًا، أن يصبح مصدر هذا الحزن ؟

ومع ذلك، لم يشعر بالغضب.

بل بشيءٍ أقرب إلى الدهشة...

كدهشة طفلٍ رأى للمرة الأولى أنّ بعض الأحلام لا تبقى كما تخيّلها.

ومنذ تلك الليلة، صار يعرف أنّ الحبّ لا يؤلمنا فقط حين يرحل،

بل حين يتغيّر ببطءٍ أمام أعيننا، بينما نعجز عن إنقاذه.

❝ أصعب الخيبات... تلك التي تأتي من مكانٍ ظننّاه أمانًا.

ثم تمضي الحياة، كما لو أنّ شيئًا لم يحدث.

تعود الطرقات مزدحمة، وتمتلئ الأيام بأصواتها القديمة، ويعتاد الناس غياب من رحلوا... أو هكذا يبدو الأمر من الخارج.

لكنّ القلب يعرف الحقيقة.

فبعض الأرواح، حين تمرّ بنا، لا تبقى معنا... بل تبقى فينا.

كان يلاحظ ذلك في التفاصيل الصغيرة أكثر من اللحظات الكبيرة.

في الطريقة التي صار ينظر بها إلى المطر، وفي ارتباكه الخفيف حين يسمع لحنًا قديمًا، وفي ذلك الحنان الذي وُلد داخله بعدما كان يظنّ أنّه اعتاد البرودة.

حتى حزنه لم يعد كما كان.

الحبّ الحقيقي لا يترك الإنسان كما وجده،

حتى لو انتهى.

إنّه يغيّر شيئًا عميقًا في نظرتنا إلى أنفسنا، وإلى العالم، ثم يرحل تاركًا أثره كالعطر في غرفةٍ أُغلقت منذ زمن.

وكان يفهم الآن أنّ بعض العلاقات لم تأتِ لتدوم،

بل لتوقظ جزءًا نائمًا من أرواحنا، ثم تمضي بهدوء.

ولهذا، لم يعد ينظر إلى الخذلان كخرابٍ كامل.

فثمّة أشخاص، رغم رحيلهم، يتركون في داخلنا نورًا صغيرًا يكبر مع الأيام، لا لأنّهم بقوا... بل لأنّهم جعلونا أكثر قدرةً على الشعور، وأكثر صدقًا مع قلوبنا.

وربّما لهذا السبب، لا ينسى الإنسان من أحبّهم حقًا.

ليس لأنّه ما زال يعيش معهم،

بل لأنّ جزءًا منه صار يشبههم إلى الأبد.

وبعد زمنٍ طويل، هدأ قلبه كما يهدأ البحر بعد عاصفةٍ أتعبته الأمواج.

لم تعد الذكريات تؤلمه بالطريقة نفسها، ولم يعد يسأل الليل لماذا تغيّرت الأشياء، أو لماذا رحل من ظنّ أنّه سيبقى.

كان يجلس أحيانًا قرب نافذته القديمة، والشمعة الصغيرة تضيء بصبرها المعتاد، فيشعر أنّ روحه كبرت قليلًا عمّا كانت عليه من قبل.

فبعض الأحزان لا تأتي لتكسر الإنسان،

بل لتفتح عينيه على نفسه.

وكان يدرك الآن أنّ الحبّ لم يكن خطأً، حتى في لحظاته المؤلمة.

فالقلوب لا تتعلّم النضج في الراحة وحدها، بل في الخسارات أيضًا، وفي تلك الطرق التي نمشيها باحثين عن شخصٍ آخر، ثم نكتشف في نهايتها أنفسنا.

ولهذا لم يعد يحمل في قلبه غضبًا تجاه أحد.

شعر بشيءٍ أكثر هدوءًا... يشبه الرحمة.

رحمةً بمن أحبّهم، لأنّهم بشرٌ مثلُه، خائفون ومتعبون ويبحثون عن السلام بطريقتهم.

ورحمةً بنفسه أيضًا، لأنّه أحبّ بصدق، ولم يكن الصدق يومًا خطيئة.

وحين نضجت روحه، توقّف عن سؤال الحب:

"لماذا رحلت؟"

وبدأ يسأله بهدوء:

"ماذا تركت في قلبي؟"

وهناك فهم أخيرًا أنّ بعض العلاقات، مهما انتهت، تظلّ نعمةً خفيّة،

لأنّها مرّت بأرواحنا وعلّمتها كيف تصبح أكثر اتّساعًا، وأكثر لطفًا، وأكثر قدرةً على الغفران.

الباب الثالث

مواكب الرماد

صار يصمت أكثر، ويتأمّل الوجوه طويلًا، ويشعر بتعبٍ خفيّ حتى في اللحظات الهادئة.

لم يكن يريد شرح ما يشعر به.

فبعض الأحزان، كلّما حاول الإنسان أن يضعها في كلمات، بدت أصغر من حقيقتها.

وكان يدرك، في أعماقه، أنّ هذا الحزن لن يمرّ تمامًا.

سيبقى هناك، بهدوءٍ خفيف، كأثر مطرٍ قديم على نافذةٍ اعتادت الشتاء.

لكنّه لم يكره ذلك كلّه.

فالحزن، رغم قسوته، فتح في روحه بابًا لم تكن تفتحه الأيام السهلة؛

بابًا جعله يرى البشر بلطفٍ أكبر، ويشعر بالأشياء بعمقٍ أكبر، ويقترب من الله بصمتٍ أكثر صدقًا.

وربّما لهذا، لا تخرج الأرواح من أحزانها كما دخلتها أبدًا.

في بعض الليالي، لا يكون الحزن فكرةً واضحة،

بل حضورًا خافتًا يجلس قرب الروح دون أن يتكلّم.

كان يعود إليه بهدوء المطر؛

بطيئًا، متواصلًا، كأنّه يعرف الطريق إلى قلبه أكثر ممّا يعرفه هو.

وكانت المدينة نائمة خلف نافذته، بينما تبقى شمعةٌ صغيرة تحترق بصبرٍ قرب الكرسي الفارغ.

لا شيء يحدث في الخارج،

لكنّ شيئًا ثقيلًا كان يمرّ داخل روحه، كليلٍ طويل لا يريد أن ينتهي سريعًا.

الحزن الحقيقي لا يشبه العواصف.

إنّه أقرب إلى موسيقى بعيدة يسمعها الإنسان وحده، ثم لا يعود قادرًا على النظر إلى الحياة بالطريقة نفسها.

ومنذ أن عرف الحزن طريقه إليه، تغيّرت أشياء صغيرة فيه.

❝ الحزن الحقيقي لا يصرخ...

بل يغيّر ملامح الروح بهدوء

❝ بعضُ القلوب لا تتكسر دفعةً واحدة...

بل تتعب ببطء.

ثم تأتي لحظةٌ لا يحدث فيها شيءٌ كبير من الخارج،

لكنّ الإنسان يشعر بعدها أنّ شيئًا داخله سقط إلى الأبد.

كان الليل هادئًا كعادته.

المطر يلامس الزجاج بخفّة، والشمعة الصغيرة تتابع احتراقها البطيء، فيما جلس طويلًا يحدّق في الفراغ دون أن يفكّر بشيءٍ واضح.

وفجأة، شعر بتعبٍ عميق...

ليس تعب يومٍ طويل،

بل تعب روحٍ حاولت كثيرًا أن تبقى كما كانت، ولم تعد تستطيع.

الانكسار لا يأتي دائمًا على هيئة صرخة.

أحيانًا يأتي كصمتٍ طويل، كهدوءٍ غريب بعد مقاومةٍ أنهكت القلب.

كان أكثر ما يؤلمه، أنّه لم يعد يعرف نفسه تمامًا.

الأشياء التي كانت تفرحه صارت بعيدة، والكلمات التي كان يؤمن بها فقدت دفئها القديم، وحتى صوته الداخلي بدا له متعبًا وغريبًا.

كأنّ الحياة مرّت فوق روحه ببطء، وتركت فيها شقوقًا صغيرة لا يراها أحد.

ومع ذلك، كان ثمّة شيءٌ خفيّ يولد وسط هذا التعب.

شيءٌ لم يفهمه في البداية، لأنّ الانكسار لا يكتفي بأخذ الأشياء من الإنسان... بل يكشف له أيضًا ما لم يكن يراه.

فبعض الأرواح لا تنضج إلّا بعد أن تتصدّع صورتها القديمة.

وربّما لهذا، حين ينكسر الإنسان بصدق، لا يعود كما كان أبدًا،

لا لأنّه صار أضعف،

بل لأنّ قلبه رأى من الحياة ما لم يعد يسمح له بالعودة إلى براءته الأولى.

❝ بعض الانكسارات لا تحطّمنا...

بل تُسقط النسخة التي لم تعد تشبه أرواحنا.

ثمة لحظات، لا يعود القلب قادرًا على الاحتمال أكثر.

لا يحدث شيءٌ جديد،

ولا تأتي كارثةٌ أخرى،

لكنّ الروح، بعد تعبٍ طويل، تشعر كأنّها امتلأت بما يفوق قدرتها على الصمت.

كان يجلس وحده، فيما المطر يهبط خفيفًا خلف النافذة، والمدينة غارقة في نومها البعيد.

أمّا قلبه، فكان مستيقظًا على وجعٍ قديم لا يعرف كيف يطفئه.

ثم تسقط الدموع بهدوء.

لا كصرخة،

بل كشيءٍ يشبه التنفّس بعد اختناقٍ طويل.

كان يشعر، كلّما بكى، أنّ في داخله شيئًا يلين قليلًا.

كأنّ الدموع لا تُخرج الحزن كلّه، لكنها تمنع القلب من التصلّب تحت ثقله.

البكاء ليس ضعفًا كما يظنّ الناس.

إنّه اللحظة التي تتعب فيها الروح من حمل نفسها وحدها.

ولهذا تبكي الأرواح الحسّاسة بصمتٍ غالبًا،

لا لتلفت أحدًا، بل لأنّ المشاعر، حين تكبر أكثر ممّا تحتمله الكلمات، لا تجد طريقًا آخر للخروج.

وبعد كلّ دمعة، كان يشعر بهدوءٍ خفيف يمرّ داخله،

كهدوء الأرض بعد المطر.

وربّما لهذا خلق الله الدموع،

لكي لا تموت القلوب من الأشياء التي لا تستطيع قولها.

❝ حين تعجز الروح عن الكلام...

تتكلّم الدموع.

ثم يأتي وقتٌ لا يختفي فيه الألم،

لكنّ الإنسان يتعلّم كيف يعيش معه.

يستيقظ في الصباح، يفتح نافذته كعادته، يرى الضوء نفسه، والمدينة نفسها، بينما يبقى في قلبه ذلك التعب الخافت الذي لم يغادر تمامًا.

في البداية، كان يظنّ أنّ النجاة تعني أن يشفى المرء كليًّا،

أن يعود كما كان قبل الحزن والانكسار.

لكنّه فهم، مع الوقت، أنّ بعض الجراح لا تُمحى،

بل تصبح جزءًا هادئًا من الروح.

الاحتمال يشبه السير تحت المطر دون محاولة الهرب منه.

لا مقاومة، ولا استسلام كامل...

فقط قدرة صغيرة على مواصلة الطريق.

أكثر ما أدهشه، أنّ القلب، رغم كلّ ما تصدّع فيه، ظلّ قادرًا على الشعور.

ما زال يتأثّر بموسيقى بعيدة، ويطمئنّ لصوت المطر، ويهدأ قليلًا حين تمرّ نسمة ليلٍ باردة قرب نافذته.

كأنّ الروح، حتى وهي متعبة، لم تفقد رغبتها الخفيّة في الحياة.

أحيانًا، كانت الشجاعة تبدو له بسيطة جدًا؛

أن ينهض الإنسان من سريره في يومٍ ثقيل،

أن يبتسم رغم الحزن،

أن يُكمل الطريق وقلبه لا يزال يحمل أثر العاصفة.

فالاحتمال ليس أن تصبح قويًّا بلا ألم،

بل أن تتعلّم كيف تحمل ألمك بلطف، دون أن تفقد إنسانيتك بسببه.

❝ أحياناً تكون الشجاعة...

أن تستمرّ فقط.

الروح التي عرفت الألم بعمق... “

تصبح أكثر رحمةً بالحياة.

ومع الأيام، بدأ يفهم أنّ الصبر ليس تلك القوّة الصلبة التي كان يتخيّلها يومًا.

ليس أن يضغط الإنسان على قلبه كي لا يشعر، ولا أن يتظاهر بأنّه بخير بينما التعب يملأ روحه.

الصبر كان شيئًا أكثر هدوءًا من ذلك.

يشبه شمعةً صغيرة تواصل احتراقها في غرفةٍ باردة، دون ضجيج، ودون أن تطلب من أحدٍ أن يلاحظ نورها.

وفي الليالي الثقيلة، حين يعود الحزن ليجلس قربه من جديد، لم يعد يقاومه كما قبل.

كان يتركه يمرّ عبر قلبه بهدوء، كما تمرّ الغيوم البطيئة في سماءٍ تعبت من العواصف.

قد أدرك أخيرًا أنّ الحياة لن تصبح يومًا خالية من الألم تمامًا.

ثمّة أشياء تنكسر في الداخل، وتبقى آثارها معنا طويلًا، لكنّ الروح تتعلّم، مع الوقت، كيف تحملها دون أن تسقط.

أجمل ما تعلّمه من الصبر، أنّ القلوب لا تنضج عبر الفرح وحده.

بل عبر تلك القدرة الخفيّة على البقاء لطيفة، حتى بعد كلّ ما مرّت به.

أن لا يتحوّل الحزن إلى قسوة،

ولا الخذلان إلى مرارة،

ولا التعب إلى انطفاء كامل.

وربّما لهذا يبدو بعض الناس هادئين على نحوٍ عميق؛

ليس لأنّ الحياة كانت رحيمة معهم،

بل لأنّ أرواحهم تعلّمت الصبر بصمت.

❝ الصبر ليس أن تنتظر نهاية الألم...

بل أن تبقى روحك مضيئة أثناء مروره.

وفي نهاية التعب الطويل، لا تصل الروح دائمًا إلى الأجوبة...

بل إلى الهدوء.

وللمرّة الأولى منذ زمن، لم يشعر بحاجةٍ إلى مقاومة الحياة.

لا لأنّها أصبحت أسهل،

ولا لأنّ الألم اختفى تمامًا،

بل لأنّ قلبه تعب أخيراً من حمل كلّ شيء وحده.

وكان التسليم يشبه أن يفتح الإنسان يديه بعد سنواتٍ من التشبّث.

أن يسمح للأشياء أن تمضي إن أرادت الرحيل، وأن تأتي إن شاء الله لها المجيء، دون خوفٍ دائم من الفقد، ودون حربٍ خفيّة مع القدر.

وفي ذلك الهدوء، شعر بشيءٍ لم يعرفه من قبل؛

طمأنينة خفيفة، كأنّ روحه جلست أخيراً على الأرض بعد سفرٍ طويل.

فبعض السلام لا يأتي لأنّ الحياة صارت أجمل،

بل لأنّ الإنسان يتوقّف عن مطالبتها بأن تكون كما يريد دائمًا.

أدرك أنّ الله لم يتركه في لياليه الثقيلة كما كان يظنّ أحيانًا.

لقد كان يقوده، ببطءٍ خفيّ، عبر كلّ هذا التعب، نحو قلبٍ أكثر اتّساعًا، وأكثر رحمةً، وأكثر ثقة.

وهكذا، لم يعد يريد من الحياة كثيراً.

كان يكفيه أن يمرّ بها بقلبٍ هادئ، وروحٍ تعرف أنّ ما كُتب لها سيصل إليها، وما لم يُكتب... لم يكن لها منذ البداية.

“ التسليم ليس أن تنطفئ...

بل أن تهدأ أخيراً.

❝ حين تتعب الروح من الخوف...

تتعلّم أن تثق بالله.

الباب الرابع

خبز الفجر

وبعد كلّ تلك الطرق الطويلة من التعب، لم تعد الحياة تبدو له كما كانت.

كان يظنّ يومًا أنّ المعنى يختبئ في الأشياء الكبيرة؛

في الوصول، وفي الأحلام البعيدة، وفي اللحظات العظيمة التي ينتظرها الإنسان طويلًا.

لكنّ روحه، بعد الألم، بدأت ترى العالم بطريقةٍ أهدأ.

صار ينتبه إلى الضوء الذي يتسلّل صباحًا على الجدار،

وإلى رائحة القهوة في الأيام الباردة،

وإلى صوت العصافير الذي كان يمرّ قرب نافذته كلّ يوم دون أن يسمعه حقًا.

وكان يشعر أحيانًا أنّ الحياة، في حقيقتها، ليست تلك الأحداث الكبيرة التي نتذكّرها دائمًا،

بل هذه التفاصيل الصغيرة التي تمنح القلب طمأنينته الخفيّة.

وفي الصباحات الهادئة، حين يفتح نافذته ويدخل الهواء البارد إلى غرفته، كان يحسّ بشيءٍ يشبه الامتنان.

لا لأنّ كلّ شيء أصبح كاملًا،

بل لأنّ روحه تعلّمت أخيرًا أن ترى النِعَم التي كانت تمرّ قربها بصمت.

حتى الحزن نفسه، لم يعد يراه عدوًّا كما قبل.

كان جزءًا من الطريق الذي أعاده إلى الحياة بقلبٍ أكثر انتباهًا، وأكثر لطفًا مع الأشياء البسيطة.

وربّما لهذا تبدو الأرواح الناضجة هادئة على نحوٍ جميل؛

لأنّها لا تبحث عن السعادة في البعيد دائمًا،

بل تجدها أحيانًا في لحظة صمت، أو دعاء أمّ، أو مساءٍ ممطر، أو ضوء شمعةٍ صغيرة يرافق وحدتها دون أن يؤذيها.

وهكذا، لم تعد الحياة بالنسبة إليه شيئًا يجب أن ينتصر عليه أو يفهمه كلّه...

بل مكانًا يتعلّم فيه، يومًا بعد يوم، كيف يحبّ وجوده بلطف.

❝ الحياة لا تتكوّن من اللحظات العظيمة فقط...

بل من التفاصيل الصغيرة التي تنقذ الروح بصمت.

"حين تنضج الروح...

تكتشف قداسة الأشياء البسيطة.

لم يعد يبحث عن الأيام المثالية كما كان يفعل من قبل.

صار يكفيه أن يمرّ النهار بهدوء، وأن يبقى قلبه خفيفًا قليلًا، دون ذلك الثقل القديم الذي كان يرافقه في كلّ شيء.

وفي بعض الصباحات، كان يجلس بصمتٍ أمام فنجان قهوته، بينما يتسرّب الضوء ببطء إلى الغرفة، فيشعر أنّ روحه تمتلئ بشيءٍ دافئ لا يشبه الفرح تمامًا... بل يشبه الرضا.

رضا الأرواح التي تعبت كثيرًا، ثم اكتشفت أنّ النجاة وحدها نعمة.

كان يندهش أحيانًا من قدرة القلب على العودة إلى الطمأنينة، رغم كلّ ما مرّ به.

كأنّ الله يضع في داخل الإنسان قوّة خفيّة تجعله ينهض كلّ مرّة، حتى بعد أكثر الليالي قسوة.

ولم يعد الامتنان بالنسبة إليه مرتبطًا بما يملكه،

بل بما بقي حيًّا داخله؛

قدرته على الحبّ، وعلى التأثّر، وعلى أن يشعر بالسلام للحظاتٍ عابرة دون خوف.

حتى الحزن، الذي عاش طويلًا في روحه، صار ينظر إليه بلطفٍ مختلف.

فلو لم يتألّم بهذا العمق، لما عرف قيمة السكينة حين تزوره، ولا معنى أن يستيقظ القلب خفيفًا بعد أعوامٍ من التعب.

وكان ثمّة دعاءٌ صامت يتكرّر داخله دون كلمات:

الحمد لله على كلّ شيءٍ لم ينكسر فيه بالكامل.

❝ أعمق أنواع الامتنان...

أن تبقى روحك حيّة بعد كلّ ما مرّت به.

❝ القلوب التي عرفت الألم...

تعرف كيف تشكر الأشياء الصغيرة بصدق.

لم يعد يمرّ على الأشياء كما كان يفعل من قبل.

صار ينتبه إلى التفاصيل التي لا يلتفت إليها أحد؛

كصوت الماء حين يُسكب بهدوء،

وطريقة انكسار الضوء على كوب زجاجي،

وابتسامةٍ عابرة لا تطلب تفسيراً.

كان يشعر أنّ الحياة تختبئ في هذه اللحظات الصغيرة أكثر مما تختبئ في الأحداث الكبيرة.

حتى الصمت، لم يعد فراغًا كما كان يراه سابقًا،

بل صار مساحة خفيفة يمكن للروح أن ترتاح فيها دون أن تشرح نفسها.

وفي طريقه اليومي، كان يلاحظ أشياء لم تكن موجودة في انتباهه القديم؛

ظلّ شجرةٍ على الجدار،

نسمة تمرّ دون أن تُرى،

وخطوة شخصٍ غريب تعبر دون أن تترك أثرًا إلا في إحساسٍ داخلي خافت.

لم تكن هذه الأشياء جديدة...

هو فقط أصبح حاضراً بما يكفي ليشعر بها.

وربّما لهذا تبدو الحياة، بعد أن تهدأ الروح، أكثر بساطةً مما كانت عليه في خياله؛

وأكثر صدقًا أيضًا.

❝ الأشياء الصغيرة لا تتغيّر...

نحن فقط نتعلّم أن نراها.

وفي آخر هذا الطريق الهادئ، لم تعد الحياة تبدو كشيءٍ ينبغي فهمه أو الانتصار عليه.

صارت أقرب إلى يدٍ خفيّة تقود الإنسان، مرةً بلطف، ومرةً بما لا يفهمه، لكنها لا تتركه خارج معناها أبدًا.

كان ينظر إلى أيّامه الآن كما يُنظر إلى نهرٍ يمشي دون أن يشرح اتجاهه؛

يكفي أن يكون جريانًا صادقًا، حتى لو لم تُدرَك غايته.

ولم يعد يسأل كثيراً عمّا ينقصه،

بل صار يلاحظ ما يبقى معه رغم كلّ شيء؛

تلك اللحظات التي تمرّ خفيفة، لكنها تترك في الداخل أثرًا لا يُنسى.

وفي هذا السكون الجديد، فهم أنّ الحياة لا تمنح أسرارها دفعةً واحدة،

بل تكشف نفسها لمن يتعلّم أن يهدأ بما يكفي ليراها.

وهكذا، لم يعد الضوء حدثًا ينتظره،

بل حالةً يسكنها القلب حين يتوقف عن مقاومة الأشياء، ويبدأ في استقبالها كما هي.

“حين تتصالح الروح مع الحياة...

تصبح أبسط الأشياء نورًا.

الباب الخامس

مزامير الروح

ليس كلّ تعبٍ يظهر على الجسد.

ثمّة أرواحٌ تمشي بين الناس بهدوءٍ كامل، بينما تحمل في أعماقها إرهاقًا لا تستطيع الكلمات أن تشرحه.

كان يشعر أحيانًا أنّ روحه أقدم منه؛

كأنّها عاشت حيواتٍ كثيرة قبل أن تأتي إلى هذا العالم، ولذلك صارت تتعب بسرعة من الأشياء الصغيرة،

ومن الضجيج الطويل، ومن الوجوه التي لا تشبه حقيقتها.

لم يكن تعبه من العمل أو من الأيام وحدها،

بل من ذلك الشعور الغامض بأنّ الحياة، رغم ازدحامها، لا تمنح الروح ما يكفيها.

فكلّ شيءٍ حوله كان يمضي بسرعة؛

الناس يركضون خلف الأسماء، والأموال، والانتصارات الصغيرة، بينما كان يشعر في داخله بجوعٍ آخر لا تشبعه الأشياء التي تشبع الآخرين.

وكان يسأل نفسه بصمت:

لماذا تبقى الروح قلقة، حتى حين تمتلك ما كانت تظنّ أنّها تحتاجه؟

ثم أدرك، بعد أعوامٍ من البحث، أنّ الروح لا تتعب لأنّها ضعيفة،

بل لأنّها خُلقت لشيءٍ أوسع من هذا العالم الضيّق.

ولهذا يشعر بعض الناس بالغربة، حتى وهم بين أحبّتهم.

ليس لأنّهم يكرهون الحياة، بل لأنّ في داخلهم حنينًا مستمرًّا نحو معنى أكبر، نحو نورٍ لا تستطيع العيون أن تراه بوضوح.

والأرواح الحسّاسة، على وجه الخصوص، تحمل هذا التعب أكثر من غيرها.

فهي لا تمرّ بالأشياء مرورًا عابرًا،

بل تشعر بها كاملة، وتتركها تعبر قلبها بعمق، حتى تصبح الحياة أثقل ممّا تبدو عليه للآخرين.

ومع ذلك، كان ثمّة جمالٌ خفيّ في هذا التعب.

فالأرواح التي تسأل كثيرًا، وتتأمّل كثيرًا، وتتألم أكثر ممّا ينبغي... هي ذاتها الأرواح التي تستطيع أن ترى النور في الأماكن التي لا يراه فيها أحد.

وربّما لهذا السبب، لا يمنح الله القلق العميق إلا للقلوب التي خُلقت لتبحث عنه.

“ بعض الأرواح لا يتعبها العالم...

بل اتّساع ما تشعر به داخله.

ثمّة أرواحٌ تمرّ بالحياة كما يمرّ الضوء على صفحة ماء،

ترتجف لأبسط الأشياء، وتتأثّر بما لا يراه الآخرون، وتحمل في قلبها من الشعور ما يجعل العالم أثقل وأجمل في آنٍ معًا.

هذه الأرواح لا تعرف القسوة بسهولة.

تتعبها الكلمات الجارحة، ويؤلمها تغيّر الوجوه، وتبقى طويلًا تفكّر في التفاصيل الصغيرة التي ينساها الناس بعد لحظات.

وقد يظنّ العالم أنّها تبالغ في إحساسها،

لكنّ الحقيقة أنّها ترى ما لا يُرى.

فهي تسمع الحزن المختبئ خلف الضحكات، وتشعر ببرودة الأرواح حتى حين تتكلّم بلطف، وتلتقط ذلك الارتجاف الخفيّ في القلوب الذي يمرّ عليه الآخرون دون انتباه.

ولهذا تتعب سريعًا.

ليس لأنّها ضعيفة،

بل لأنّها تعيش الأشياء كاملة.

تمرّ التجارب في داخلها بعمق، كأنّ الحياة لا تلامس أطراف روحها فقط، بل تعبرها كلّها.

كان يشعر أحيانًا أنّ روحه نافذةٌ مفتوحة دائمًا،

يدخل منها الضوء، لكن تدخل منها الريح أيضًا.

ومع ذلك، فإنّ في الأرواح الحسّاسة نعمةً خفيّة.

فهي، رغم تعبها، أكثر الأرواح قدرةً على الحبّ، وعلى الرحمة، وعلى رؤية الجمال الصغير الذي يضيع وسط عجلة العالم.

إنّها الأرواح التي تتألم من مشهد غروب، وتطمئنّ لصوت المطر، وتشعر بالقرب من الله في لحظة صمتٍ عابرة لا ينتبه لها أحد.

وربّما لهذا خُلقت بهذه الرهافة،

لكي تذكّر هذا العالم القاسي أنّ الإنسان لم يُخلق ليعيش فقط... بل ليشعر أيضًا.

❝ الرهافة ليست ضعفًا...

بل قلبٌ مفتوح أكثر ممّا ينبغي.

كان يمشي بين الناس أحيانًا، ويشعر كأنّه يعبر حلمًا لا يخصّه بالكامل.

الوجوه حوله كثيرة، والأصوات تمتلئ بها الطرقات، لكنّ شيئًا خفيًّا في داخله ظلّ بعيدًا... بعيدًا على نحوٍ لا تفسّره المسافات.

وكانت روحه، منذ زمنٍ لا يعرف بدايته، تشبه طائرًا حطّ قليلًا على هذه الأرض، دون أن ينسى السماء تمامًا.

لهذا كان يشعر بالحنين في أكثر اللحظات عاديّة؛

أمام غروبٍ هادئ، أو نافذةٍ يبلّلها المطر، أو شمعةٍ صغيرة تسهر وحدها في آخر الليل.

كأنّ الأشياء الجميلة لا تمنحه الطمأنينة فقط، بل تذكّره أيضًا بشيءٍ أوسع منها جميعًا.

ولم تكن غربته كحزنٍ واضح.

بل كصمتٍ طويل يسكن خلف أيّامه، وكإحساسٍ خفيّ بأنّ العالم، مهما اتّسع، لا يستطيع أن يحتوي تمامًا ما في روحه.

وكان يراقب الناس وهم يركضون خلف الأشياء بشغفٍ كبير، بينما يقف قلبه أحيانًا على الهامش، متعبًا من كلّ هذا التعلّق بما يزول سريعًا.

ثمّة أرواح لا تبحث عن مكانٍ تعيش فيه فقط،

بل عن معنى تشعر داخله أنّها وصلت أخيرًا.

وربّما لهذا السبب، كان الأقرب إلى قلبه دائمًا تلك اللحظات التي يختفي فيها ضجيج العالم قليلًا؛

حين يبقى وحده مع السماء، أو مع صلاةٍ صامتة، فيشعر أنّ غربته تخفّ للحظة... كأنّ روحه تلمح من بعيد

الطريق الذي جاءت منه.

❝ ليست الغربة دائمًا ابتعادًا عن الأرض...

أحيانًا تكون اشتياقًا إلى السماء.

شعر أحيانًا أنّ الحياة تشبه طريقًا طويلًا يمشيه الناس على عجل، بينما تتوقّف روحه بين حينٍ وآخر لتسأل:

إلى أين؟

كان يرى كثيرين يملكون ما حلموا به يومًا، ومع ذلك تبقى في عيونهم تلك المسافة الخفيّة التي لا يملؤها شيء.

كأنّ القلب، مهما امتلأت يداه، يبقى يبحث عن شيءٍ آخر لا يُمسك.

ولهذا لم يكن تعبه من قلّة الأشياء،

بل من شعوره أنّ الأشياء وحدها لا تكفي.

فالروح لا تشبع كما يشبع الجسد.

قد يمنحها العالم لحظاتٍ من الفرح، لكنّها تعود بعد كلّ امتلاء لتقف أمام نفسها بالسؤال ذاته، كأنّ في داخلها فراغًا لا خُلِق لهذا العالم أن يملأه بالكامل.

كانت أكثر لحظاته صدقًا تلك التي شعر فيها بمعنى خفيّ يمرّ عبر قلبه بهدوء؛

في صلاةٍ صامتة، أو كلمةٍ صادقة، أو نظرة رحمةٍ عابرة، أو لحظة تأمّل تحت سماءٍ واسعة.

هناك فقط، كان يشعر أنّ روحه تتنفّس.

وربّما لهذا يظلّ الإنسان يبحث طوال حياته؛

لا عن حياةٍ كاملة، بل عن معنى يجعل احتماله للحياة أكثر نورًا.

فحين يغيب المعنى، تصبح الأيام متشابهة كغرفٍ مغلقة،

وحين يحضر، يضيء أصغر الأشياء من الداخل.

“ ليست الروح جائعة إلى الحياة...

بل إلى المعنى الذي يضيئها.

في بعض الأمسيات، كان يسمع روحه تطلب منه شيئًا بسيطًا جدًا:

أن يتوقّف قليلًا.

لا هربًا من الحياة،

بل اقترابًا منها بطريقةٍ أهدأ.

فالعالم يمرّ سريعًا، والأيام تمتلئ بالأصوات والوجوه والطرق الطويلة، حتى ينسى الإنسان أن يُصغي إلى ذلك الصوت الخافت في داخله.

كان يكتشف، كلّما جلس وحده قرب نافذته القديمة، أنّ الروح تشبه ماءً عكرًا،

لا يرى الإنسان عمقها إلا حين تهدأ.

في التأمل، لا يحدث شيءٌ كبير من الخارج.

الشمعة تواصل احتراقها الصغير، والمطر يهبط بهدوء خلف الزجاج، والليل يبقى ليلًا كما كان دائمًا.

لكنّ شيئًا ما، في أعماق القلب، يبدأ بالاتّساع.

هناك، بين الصمت والسكينة، كانت الأسئلة تخفّ حدّتها قليلًا، لا لأنّه وجد كلّ الأجوبة، بل لأنّ روحه لم تعد خائفة منها كما قبل.

أدرك أنّ أقرب لحظاته إلى الله ليست في الكلمات الكثيرة،

بل في تلك الطمأنينة الخفيّة التي تنزل على قلبه حين يصمت العالم داخله أخيرًا.

فبعض الأجوبة لا تأتي لأنّ الإنسان فكّر طويلًا،

بل لأنّه هدأ بما يكفي ليسمعها.

❝ حين تهدأ الروح...

تبدأ الأشياء التي كانت بعيدة بالاقتراب.

وبعد طرقٍ طويلة من البحث، بدأ يدرك أنّ روحه لم تكن تبحث عن شيءٍ بعيد كما ظنّت دائمًا.

كانت، في كلّ تعبها وحنينها وأسئلتها، تمشي ببطء نحو الله.

ليس نحو صورةٍ عظيمة تهبط من السماء،

بل نحو ذلك الحضور الخفيّ الذي كان يرافقه دون أن ينتبه.

كان يجلس أحيانًا في آخر الليل، والشمعة الصغيرة تضيء بصمتها المعتاد، فينزل على قلبه سلامٌ لا يعرف له سببًا.

لا يحدث شيءٌ استثنائي،

ومع ذلك يشعر أنّ روحه لم تعد وحدها.

وهناك فهم، للمرة الأولى، أنّ الله لا يُدرك دائمًا بالعقل المتعب من الأسئلة،

بل بالقلب حين يهدأ.

وكان يراه في الأشياء الصغيرة أكثر من اللحظات الكبيرة؛

في الرحمة التي تظهر فجأة في قلب إنسان، وفي الطمأنينة التي تأتي بعد بكاءٍ طويل، وفي النور الخفيف الذي يبقى داخل الروح رغم كلّ ما مرّت به.

وربّما لهذا السبب، لم تعد روحه تريد من الحياة كثيرًا كما قبل.

كان يكفيها ذلك الشعور الخافت بأنّ ثمّة يدًا خفيّة تمسك قلبه كلّما أوشك على السقوط.

وبعد كلّ تلك الرحلة، أدرك أنّ الإنسان لا يصل إلى الله حين يعرف كلّ الأجوبة،

بل حين يتعب من الهرب، ويجلس أخيرًا بسلامٍ داخل نفسه.

❝ أقرب الطرق إلى الله...

أن تهدأ روحك بما يكفي لتشعر به.

ولم يأتِ النور كما كان يتخيّل.

لم ينزل على روحه دفعةً واحدة،

ولم تمتلئ أيّامه فجأة باليقين.

بل جاء هادئًا... خافتًا... كصباحٍ يتسلّل إلى غرفةٍ لم تنتبه متى بدأ الظلام ينسحب منها.

شعر به أحيانًا في طمأنينةٍ صغيرة تزور قلبه دون سبب،

أو في قدرةٍ جديدة على احتمال ما كان يكسره من قبل،

أو في تلك اللحظة التي ينظر فيها إلى الحياة، بكلّ نقصها، دون خصام.

وفهم، بعد الطريق الطويل، أنّ الروح لا تُشفى كلّها دفعةً واحدة،

بل تتعلّم، قليلًا قليلًا، كيف تحمل عتمتها دون خوف.

لم تختفِ الأسئلة تمامًا،

لكنّها لم تعد تخيفه كما كانت.

ولم يصبح الطريق أوضح،

لكنّه صار يمشيه بقلبٍ أكثر هدوءًا.

وربّما كان هذا هو النور.

لا أن ترى كلّ شيء بوضوح،

بل أن تجد في داخلك ما يكفي من السلام لكي تواصل السير.

وكشمعةٍ صغيرة تعلّمت الاحتراق دون ارتباك،

بدأت روحه تفهم أنّ بعض اليقين لا يأتي كإجابة...

بل كطمأنينة.

❝ بعض الأرواح لا تجد النور...

بل تتعلّم أن تصبحه.

الباب السادس

العبور الأخير

وبعد كلّ ما عبرته الروح من حبٍّ ووحدة، ومن ألمٍ ونور، يصبح الكلام عن الموت أكثر هدوءًا ممّا كان في البدايات.

لا لأنّ الإنسان لم يعد يخاف الرحيل، بل لأنّه يبدأ، شيئًا فشيئًا، بفهم هشاشة الحياة، وجمالها العابر.

فثمّة لحظة تنظر فيها الروح إلى الأشياء كلّها بعينٍ مختلفة،

إلى الوجوه التي تحبّها، وإلى الضوء المائل على الجدران، وإلى المساءات التي تمرّ سريعًا دون أن تعود، فتشعر أنّ العالم كلّه يشبه أغنية قصيرة... جميلة لأنّها لا تدوم.

وهناك، يبدأ الموت بفقدان قسوته القديمة.

لا يعود بابًا مظلمًا كما تخيّلناه طويلًا،

بل طريقًا أخيرًا تمشيه الأرواح المتعبة نحو سكينةٍ أوسع من هذا العالم.

الحياة، بكلّ ما فيها من لقاءاتٍ وأحزانٍ وأيّامٍ عابرة، ليست سوى عبورٍ هادئ بين يدَي الله.

نأتي ممتلئين بالأسئلة، ثم نمضي وقد تعلّمت أرواحنا شيئًا من الحبّ، وشيئًا من الصبر، وشيئًا من النور.

ولذلك، لم يعد الموت يبدو له مخيفًا كما كان من قبل.

لا لأنّه فهم أسراره،

بل لأنّ قلبه صار أكثر طمأنينة تجاه فكرة الرجوع.

فالشموع لا تحزن حين ينتهي احتراقها؛

لقد خُلقت أصلًا لكي تمنح نورها، ثم تنطفئ بهدوء.

وربّما الأرواح تشبهها قليلًا.

نمرّ بهذه الحياة حاملين ما استطعنا من الرحمة، ومن الحنين، ومن الضوء الخافت الذي تركته الأيام فينا، ثم نعود... أخفّ ممّا جئنا.

وكان أجمل ما تعلّمه من الرحلة كلّها، أنّ الأشياء العابرة ليست أقلّ قيمة بسبب فنائها،

بل ربّما تصبح أكثر قداسة لأنّها لا تبقى.

ولهذا، يجب أن نحبّ الحياة بلطف،

والناس بلطف،

وحتى أنفسنا بلطف؛

فنحن جميعًا عابرون، مهما طال بنا الطريق.

“ الموت ليس دائمًا نهاية الطريق...

أحيانًا يكون عودة الروح إلى سلامها الأوّل.

❝ كلّ شيءٍ يمرّ...

ولهذا يستحقّ أن نحبّه برفق.

ومع الوقت، بدأت روحه تفهم شيئًا كانت تقاومه طويلًا،

أنّ الحياة لا تحفظ شيئًا إلى الأبد.

الغروب ينسحب ببطء عن النوافذ،

والمطر يتوقّف بعد ساعاتٍ من البكاء،

والأوراق الصفراء تترك الأشجار بهدوءٍ كلّ خريف، كأنّ الطبيعة نفسها تعلّم الأشياء كيف ترحل دون ضجيج.

وكان الإنسان، رغم معرفته بكلّ هذا، يظلّ يتألّم كلّما مرّ شيءٌ جميل عبر قلبه ثم مضى.

لا لأنّ النهاية وحدها موجعة،

بل لأنّ الروح، في سرّها العميق، تتمنّى دائمًا لو أنّ الأشياء التي أحبّتها بقيت قليلًا أكثر.

كان يسمع أحيانًا صوت الأذان البعيد في آخر المساء، فيشعر أنّ العالم كلّه يمتلئ بذلك الحزن الهادئ الذي لا يجرح القلب، بل يلينه.

حزن الأشياء العابرة، التي تذكّر الإنسان أنّه هو أيضًا عابر.

حتى الألم نفسه، الذي ظنّه يومًا أبديًّا، بدأ يبهت مع الزمن، كعطرٍ بقي طويلًا في غرفةٍ فارغة ثم اختفى دون أن ينتبه أحد للحظة رحيله.

وهناك فهم شيئًا آخر:

أنّ الزوال ليس دائمًا قسوة الحياة،

بل طريقتها في تعليمنا كيف نحبّ بصدق.

فلو بقي كلّ شيء، لما انتبهنا إلى جماله.

ولو لم تكن الأيام تمضي، لما تعلّق القلب بضوئها إلى هذا الحدّ.

وربّما لهذا خُلقت الأشياء الجميلة عابرة؛

لكي نتعلّم كيف نراها بامتنان، لا بتملّك.

“ الأشياء لا تؤلمنا لأنّها انتهت فقط...

بل لأنّنا تمنيّنا سراً لو أنّها بقيت.

❝ ربّما خُلقت الأشياء الجميلة عابرة...

لكي نتعلّم كيف نحبّها بعمق.

ومع اقتراب الروح من هدوئها الأخير، تبدأ بالنظر إلى الحياة بطريقةٍ مختلفة.

لا تعود تسأل كثيرًا عمّا أخذته منها الأيام،

بل عمّا تركته هي في قلب العالم قبل أن تمضي.

الإنسان لا يبقى حقًّا بصورته، ولا بصوته،

ولا حتى بالأيّام التي عاشها.

كلّ ذلك يذوب ببطء، كما يذوب الضوء الأخير في آخر المساء.

لكنّ شيئًا آخر يبقى.

يبقى اللطف الذي منحه أحدهم في وقتٍ كان القلب فيه متعبًا،

وتبقى كلمةٌ خفيفة أنقذت روحًا من عتمتها دون أن يدري قائلها،

ويبقى دفء الأشخاص الذين مرّوا في حياتنا كأنّهم شموع صغيرة لم تطلب شيئًا سوى أن تترك نورًا هادئًا خلفها.

الرحمة هي الأثر الأجمل الذي يستطيع الإنسان أن يتركه في هذا العالم.

فكلّ شيءٍ آخر يبهت مع الوقت،

إلّا ذلك السلام الخفيّ الذي تمنحه روحٌ صادقة لروحٍ أخرى.

وربّما لهذا لا ترحل الأرواح الطيّبة تمامًا.

يبقى منها شيءٌ في الأماكن، وفي الذكريات، وفي القلوب التي لمستها بلطف.

كأنّ الله لا يجعل الحبّ الصادق يختفي كلّه أبدًا.

ولهذا، لم يعد يخاف كثيراً من فكرة الرحيل.

كان يكفيه أن يترك خلفه قلبًا أخفّ، أو دمعةً هدأت، أو روحًا شعرت يومًا أنّها لم تكن وحدها تمامًا.

الشمعة الأخيرة

وفي آخر الليل، حين هدأت الأصوات كلّها، بقيت شمعةٌ صغيرة تضيء وحدها قرب النافذة.

كان نورها خافتًا...

لكنّه يكفي.

وخارج الزجاج، كانت السماء ساكنة على نحوٍ غريب، كأنّ العالم كلّه دخل لحظة صلاةٍ طويلة.

نظر إليها بصمت، وشعر أنّ الأرواح تشبه الشموع أكثر ممّا نظنّ؛

تحترق بهدوء، تمنح دفئها العابر، ثم تنطفئ دون ضجيج.

ولم يحزن لهذه الفكرة.

فثمّة سلامٌ خفيّ في الأشياء التي تعرف متى تكتمل.

وحين اقترب الضوء الصغير من نهايته، لم يترك عتمةً كاملة.

كان قد ترك في المكان ما يكفي من النور لكي تبقى الطمأنينة.

❝ بعض الأنوار لا تنطفئ حين تغيب...

بل تبقى هادئةً داخلنا.

وفي النهاية...

إذا مرّت هذه الكلمات يومًا قرب روحك بهدوء،

وتركت فيها شيئًا من الطمأنينة،

فربّما كانت الشموع تصلّي فعلًا.

أغلق هذا الكتاب بلطف...

واترك قليلًا من الصمت بينك وبين قلبك.

فهناك أحيانًا،

تبدأ الرحلة الحقيقية.

النهاية...